حكايتي والتعليم:
قصة تبدو عادية .. ولكن!

كوثر النيرب

لا أدري لماذا خطرت ببالي أبيات من قصيدة الشاعر الإسباني لوركا (قصيدة الوردة): «لم تكن الوردة تبحث عن الوردة .. جامدة عبر السماء .. كانت تبحث عن شيء آخر». لا أعرف إن كانت مهنة التعليم هي التي اختارتني أم أنا التي اخترتها، ولكن كنت أبحث عن شيء آخر.

نشأت في أسرة أنا الكبيرة بين خمسة من الأبناء، كان لي نصيب الأسد من التدليل والاهتمام. كانت أمي غير متعلمة، وأبي لا أعرف سوى أنه كان يصمم على توقيع اسمه فقط على الرغم من أنه لا يعرف القراءة والكتابة، فخره الدائم بتفوقي منحني الثقة بالنفس والمسؤولية؛ مسؤولية أن أدخل دائماً الفرح إلى قلبه وقلب أسرتي، وبخاصة أمي وجدتي وجدي، ولا أنسى عمي؛ فهو كان مدرساً في ليبيا، وفي الإجازة الصيفية كان يجهّز أبياتاً من الشعر وآيات من القرآن الكريم لتعليمي قواعد اللغة والأدب.

كانت وتداً للبيت، هكذا كنت أرى جدتي، تحكي القصة، تغني أشعاراً، بطريقة كنت أحبها وأذكرها إلى الآن، اشتم رائحة ثوبها حتى هذه اللحظة تعبق في أنفي، عندما كنت أنام بجوارها أو أهرب باحثاً عن ملجأ من غضب أمي.

كانت وتداً لبيتنا بكل معنى الكلمة، ومن هنا كان هناك حبل سري يربطني بها، يقوي ثقتي بنفسي، ويجعلني دائماً متفوقة في تعليمي.

أنهيت دراستي الابتدائية بتفوق كعادتي، انتقلت إلى المرحلة الإعدادية، وكنت دائماً أنال الثقة والاهتمام ممن حولي، كنت دائماً عندما يسألني أحد ماذا ستكونين في المستقبل؟ كنت أجيب: أمنيتي أن أكون مضيفة طيران، لا أدري لماذا هذه الأمنية؟ واستمرت هذه الأمنية تراود خيالي حتى أنني كنت أتخيل أنني أسافر عبر العالم. ومن الأمور المضحكة الآن أنني أخاف ركوب الطائرة.

نعود إلى أمنياتي، انتهيت من دراسة الشهادة الإعدادية وطبعا بتفوق. وها قد وصل قطاري التعليمي إلى المرحلة الثانوية، وهنا كان التحول في أمنياتي، ربما كلمة صغيرة تفعل فعلها في جعلك تعزف لحناً آخر لحياتك لم تكن تتصور أن تعزفه، وهكذا كان. كان أستاذي في اللغة العربية في الصف الأول ثانوي هو من جعل من فكرة التعليم بعد ذلك فكرة رائعة مؤجلة. نعم، فعلى الرغم من أنه كفيف، وكنت دائماً أتذكر طه حسين عندما أراه فعلاً، كان يحمل روحاً شفافة وإحساساً إنسانياً، جعل من مادة اللغة العربية عالماً آسراً، ومن هنا بدأت موهبتي في الكتابة الإبداعية تشق طريقها، وبتشجيع منه، حيث كان عندما يستمع لما أكتبه في موضوع الإنشاء كان يقول، وما زالت كلماته في أذني حتى الآن: استمري، سيكون لك مستقبل، اقرئي كثيراً يا بنيتي. من هنا بدأت الكتابة، وبدأت أمنياتي تتبدل، وأصبحت أتمنى أن أدرس الصحافة والإعلام، لكن عندما كنت أذكر ذلك أمام أمي وجدتي آنذاك تضحكان، ولا تقولان شيئاً، وحده والدي الذي كان مدمن سياسة ومتابعة أخبار، كان يبتسم ويقول: ومالو بنشوف.

بدأت الكتابة وبدأت مقالاتي وأشعاري تنشر لي في جريدة الأيام، وأنا فرحة جداً بموهبتي، وهكذا قررت الالتحاق بالقسم الأدبي على الرغم من تفوقي في المواد العلمية.

بداية البداية

انتهت مرحلة الثانوية العامة بتفوقي وحصولي عل معدل يؤهلني للالتحاق بكلية مجتمع رام الله، وهي كانت –آنذاك– الكلية التي يلتحق بها أبناء اللاجئين المتفوقين مجاناً. أما جامعات الضفة، فلم تكن إلا للمتفوقين الميسورين، وهكذا التحقت بكلية مجتمع الطيرة، ولكن على وعد من الأهل بالالتحاق بجامعة بيرزيت بعد ذلك، لأن أمنيتي كانت أن ألتحق بجامعة بيرزيت لدراسة الصحافة والإعلام. أنهيت السنة الدراسية الأولى تخصص لغة إنجليزية بمعدل جيد،

ولم أكن أهتم كثيراً لدراستي، لأن نظري كان يتجه إلى هناك، إلى بيرزيت. فعلاً في السنة الثانية من دراستي تقدمت لامتحان قبول في بيرزيت وقبلت، ولكن صدمت عندما قال لي والدي خسارة انتهيت من سنة ولم يتبقَّ إلا سنة فقط، وبعدها تحصلين على وظيفة وتكملين الجامعة. كانت صدمة كبيرة، تجاوزتها بالأصدقاء وبأساتذتي في كلية المجتمع، وقد أقنعوني بكلام الأهل، وما شاء الله كان. انتخبت عضواً في مجلس الطلبة، ناضلت ورفضت الامتحان الشامل، وضاعت سنة دراسية بسبب عنادي، وبعد ذلك بعام انتهيت من الشامل.

نظراً لضياع سنة بسبب عدم تقدمي للامتحان الشامل، لم أتوظف بسرعة، ولكن عملت على نظام اليومي سنة كاملة. كنت أسكن رفح، ولكني تقريباً عملت في مدن كثيرة في القطاع: جباليا، بيت حانون، القرارة، معن، بني سهيلة، وهكذا كان لهذا التنوع في هذه السنة دور كبير في منحي الصبر والمثابرة والتكيف، إذ أنني تعاملت مع فئات كثيرة ومتنوعة من الطلاب.

الوظيفة وصدمة الواقع

جاء تثبيتي في مدرسة من أروع مدارس رفح طلاباً وإدارةً، وكانت البداية الحقيقية، ولكنها بداية كانت جد صعبة، إذ أنني لم أتعين في تخصصي، وهو اللغة الإنجليزية، إذ آنذاك كانت اللغة الإنجليزية فقط من الصف الخامس، ومن هنا لم يكن إلا معلمة واحدة للغة الإنجليزية في المدرسة، فما العمل؟ لا يوجد فائض إلا تخصص مرحلة دنيا الصف الأول، يا الهي الصف الأول! وبدأت الأسئلة تتصارع داخلي: كيف سأتعامل مع هؤلاء الصغار؟ هل سيتقبلونني؟ من أين أبدأ ولكن، للأمانة، لم تتركني المديرة في تخبطي هذا، بل أخذت بيدي في حضورها وفي تدريبها لي.

لماذا لا أستغل موهبتي في الكتابة من أجل الكتابة لهؤلاء الصغار، لم أكن أكتب للصغار أبداً، إلى أن عملت معلمة للصف الأول، وهكذا كنت أشرح درسي وأحفظ الطلاب نشيداً من تأليفي على الدرس حتى في الرياضيات، والتربية الدينية والوطنية.

استمريت في تدريس الصف الأول مدة خمس سنوات كاملة، كانت تجربة رائعة، ولكن ظلت أحلامي تطاردني، حلمي في دراسة الصحافة والإعلام .. الحلم المؤجل، ولكن حلمي في أن أعلم تخصصي ظل هاجساً أنتظر الفرصة المناسبة حتى يتحقق.

عناد وتصميم

جاءت الفرصة، أصبح هناك فراغ في إحدى المدارس وتحتاج المدرسة لتخصصي (اللغة الإنجليزية)، وجاء الرد المفزع من الموجهة، لا يمكن أن تمارسي تخصص غير تخصص الصف الأول، وكعادتها كانت دائماً تقول لي كلمتها التي لن أنساها أبداً (خلقت لأول)، أنت أول من استخدم الأناشيد، أنت أول من استعمل بيت الدمى ... ولكن تخصصي، أريد أن أخوض تجربة تدريس اللغة الإنجليزية، وهكذا بعد مشاحنات وغضب منها رحمها الله وافقت، وهنا لا يسعني في هذا المجال إلا أن أترحم عليها لأنها فعلاً كانت مثالاً رائعاً للموجه والمدرب الإنسان.

فرحة التخصص واستمرار الحلم

ومنذ تلك اللحظة وأنا أعلم اللغة الإنجليزية. وعلى الرغم من تميزي وبراعتي في تدريس الصف الأول، فإن تدريس اللغة الإنجليزية كان مغايراً ومختلفاً وتمتعت بتجربتي، وكتبت الأناشيد أيضاً باللغة الإنجليزية، وكان للدمى أيضاً اهتمام خاص عندي، حتى كتابة هذه القصة، وقد أديت دروساً توضيحية كثيرة، ولكن الدرس الأكثر تأثيراً كان درساً باللغة الإنجليزية للصف الخامس مع الموجه الدكتور محمد أبو ملوح، وكان تقريباً أول استخدام للدمى في التعليم، وكانت أناشيد من تأليفي، الآن تبقى أمنيتي في إخراج مخطوط ديواني (أناشيد أطفال).

أشعر بالفخر وأنا أتواصل مع طلابي ممن كبروا وأصبحوا أمهات وآباء، ومنهم من أصبحوا زملاء لنا في مهنة التعليم، أشعر بالفخر عندما جاءت ابنتي وهي تحضنني وتقول: "ماما اليوم سألوا طالبة في مدرستنا، من المعلمة التي أثرت في حياتك ولن تنسيها أبداً، ذكرت الطالبة اسمك يا ماما، وعندما سألوها: لماذا؟ قالت الطالبة عنك: إنها لم تكن معلمة فقط، بل كانت أماً، كانت إنسانة تحترم آراءنا في كل شيء حتى في أشعارها.

هذه قصتي مع التعليم، هي قصة تبدو عادية، ولكن في تفاصيلها الدقيقة هي غير عادية، وهنا أذكر حديث الوزير الأول الياباني عن سر تقدم بلاده رد ذلك للمعلم، وقال: أعطيناه -أي المعلم- راتب وزير واحترام السفير. أمنية: لا نريد راتب الوزير، ولكن فعلاً نريد احترام السفير.

مدرسة غزة الابتدائية المشتركة (د)

جانب من مشاركة المعلمة كوثر النيرب في لقاءات التكون المهني في غزة.